القصة الرابعة
إني ملكك -اعترافات كاهن.

صوت جمهرة بعض الآباء الكهنة في الرواق يتهامسون بصوت منخفض مضطربين وهم يتساءلون عن حال الكاهن الأكبر بينهم عمرًا "الأب افرايم".

كانت قد ساءت حالته كثيرا في الأيام الأخيرة والآن الطبيب في غرفته في هذا الوقت من الليل.. كان قد دخل مع الطبيب الكاهن الذي تتلمذ على يد الأب افرايم فاتخذه الأب توماس أباه الروحي واتخذه الأب افرايم كاهن اعترافه، وفي الأيام التي مضت كان يسهر الأب توماس على راحة الكاهن افرايم وخاصة بعدما أقعده المرض فراشه.

كان الطبيب المختص يفحص الكاهن الشيخ بسماعاته الطبية، ونظر إلى نبضات قلبه بواسطة عد النبضات في ساعده الأيسر.. تنهد الطبيب وهو يغلق حقيبته الطبية، وكتب على روشيتته الخاصة أن ينقل للمشفى في أقرب وقت لأجل الاهتمام به عن قرب.

أكد له توماس انه سيفعل هذا، وشكر تعبه من أجل قدومه في هذا الوقت.. خرج الطبيب من الغرفه فتلقاه الكاهن المسؤل عن الدير بصحبته الرهبان الذين نذروا أنفسهم لله بالتعبد والصلاة، وكان على وجههم الحزن من أجل الكاهن افرايم كاهن كنيستهم التابعة للدير.

فسأله الأب الرئيس وقال: "كيف حال الأب افرايم".

أجاب الطبيب بقلة حيلة وقال: "الحالة الصحية لا تبشر بخير.. يبدو أن قلبه قد ضعف كثيرا، وأي تدخل طبي سيجعله يصبح أفضل، لكن أنا أرى أن يدخل إلى المشفى حتى نخفف عنه الآلام متى يسلم روحه للرب".

ارتسمت على وجه من سمع كلام الطبيب علامات الأسى والقهر في الكهنوت.. الإنسان يسلم روحه لله؛ فلا يخاف الموت، وإنما ينتظره على رجاء القيامة في المجيء الثاني للرب، لكن الطبيعة البشرية دائمًا ما تحزننا وتجعلنا نعود ونفكر بأن الموت هو إحدى طرق الفراق المؤلم.

زفر الكاهن الرئيس وقال: "سأفعل ما يريده الأب افرايم؛ فهو قد أوصاني أنه إذا جاءت ساعته فإنه يريد أن يسلم الروح في الدير وليس بمكان آخر وأنا احترم وصيته، وسنفعل ما بوسعنا حتى نخفف عنه الآلام".

قال الطبيب: "وأنا سأمر كل يوم لرؤيته.. صلوا من أجله يا أبت".

"السلام والأمان معك يا بني".

رسم علامة الصليب على وجهه ثم هب بالخروج، فدخل الأب الكاهن الرئيس إلى غرفة الأب افرايم، وصلى له وطلب من الأب توماس أن لا يتركه أبدا، وما كان من الأخير إلا أن ينفذ الأمر بكل سرور.

ينام بكل هدوء على سريره القديم.. لا توجد في غرفته سوى سرير بلحاف قد مر عليه من الزمان الكثير وحتى كان قد نسي من أي سنة هو.. مكتبة ومنضدة صغيرة في آن واحد للكتابة وبقربها كرسي قديم أيضا قد تقشرت صبغته البنية وضهر تحتها اللون الأصلي للأخشاب بسبب كثرة الاستخدام.. توجد على المنضدة أقلام وأوراق كان يكتب فيها ما تمليه عليه روحه، وقد كتب الكثير

الكثير لسنوات منذ أن نذر نفسه لله.

توجد خزانة للملابس ليس فيها الكثير؛ فقد تعوَّد أن لا يكون في الخزانة سوى أربع قطع؛ قطعتين للباس الشتوي، وقطعتين للباس الصيفي، والأسود هو اللون الموحد. كان يتقنن في كل شيء ليس لأن حالته لا تساعده في أن يشتري الأفضل أو يقتني الأغلى، بل لأنه عود نفسه القليل ليدرب نفسه على الفقر، ليس جسديا فقط، بل روحيا أيضًا.

ينام بهدوء بعد أن أعطاه الطبيب مسكنا لجعله يرتاح حتى لا تسوء حالته أكثر. رجل قارب الثمانين من عمره ضعيف البنية، ذو لحية رمادية طويلة نوعا ما بشعر خفيف كان قد خف على مر السنين، عظام فكة بانت لشدة ضعفه؛ فقد كان يصوم بكثرة وينقطع عن الطعام كثيرا ليدرب روحه على قتل الشهوات في داخله.

جثا الأب توماس بجانبه على الأرض. لم يرضَ الجلوس حتى على الكرسي الموجود في الغرفة.. أراد أن يكون بالقرب من معلمه مثلما علمه يوما ما عن التواضع، وقال كما هو مكتوب: "من أراد أن يكون كبيركم يجب أن يصير خادمكم لأن من تواضع لله رفعه". فكان الأب توماس يحفظ كلام معلمه عن ظهر قلب.

شعر بحركة خفيفة بعد مضي ساعة عن مغادرة الطبيب صوت ورنة تخرج مع أنفاس الأب افرايم فنهض على الفور ليجسه أن كان استيقظ ويحتاج لشيء فقال: "هل أنت بخير يا أبتي".

أجابه الأب افرايم بصوت خافت متعب مرهق، وقال: "أنا بخير، لكن يجب أن تقوم بسر الاعتراف ومسحة المرضى قبل أن أموت فلا أريد أن أموت

قبل آخر اعتراف"..

أجابه الأب توماس قائلا: "لقد اعترفت قبل يومين.. يكفي مسحة المرضى.. لا تتعب حالك أكثر.. أرجوك اختزن طاقتك".

كح قليلا ثم أجاب: "هناك اعتراف لم أفصح عنه من قبل لأحد، وأريدك أن تحلني من خطأي.. الرب يعرف كل شيء، لكنه تقليد الكنيسة و لا أريد أن أموت وأنا قد أخفيت عن أب اعترافي فلتغفر أخطائي على الأرض، وليغفر لي الأب السمائي أخطائي في السماء عاملا بوصية يعقوب الرسول بالاعتراف بالزلات حيث قال "اعترفوا بعضكم لبعض بالزلات وصلوا بعضكم لأجل بعض لكي تشفوا طلبة البار تقتدر كثيرًا في فعله".

أجابه الأب توماس موافقا عند رغبته في الاعتراف وطلب منه أن يمهله دقائق من أجل أن يجلب القربان المقدس مع الزيت المقدس وملابس الصلاة الخاصة.

وبعد مضي دقائق كان الأب توماس يجلس بالقرب من الأب افرايم طالبا منه أن يتلو سر التوبة فقال: "أعترف لك بخطيتي، ولا أكتم إثمي.. قلت أعترف للرب بذنبي وأنت رفعت آثام خطيتي.. ارحمني يا الله حسب رحمتك حسب كثرة رأفتك.. امح معاصي.. اغسلني كثيرًا من إثمي ومن خطيتي.. طهرني لأني عارف بمعاصي وخطيتي أمامي دائمًا إليك وحدك أخطأت والشر قدام عينيك.. صنعت لكي تتبرر في أقوالك، وتغلب في قضائك هاأنذا بالإثم صورت وبالخطية حبلت بي أمي.. استر وجهك عن خطاياي وامح كل آثامي". "مزمزر داؤد النبي".

فأجابه الأب توماس وقال: "سأحلك يا أبتي الآن.. وأطعمك من جسد الرب".

أجابه الأب افرايم وقال: "كلا، ليس الآن.. اسمع خطيئتي اولا ثم أكمل عملك".

عاد الأب توماس وجلس بالقرب منه وبدأ بالإصغاء إلى ما يقوله الأب الكاهن افرايم.. وهو يعود بذاكرته إلى ٤٠ سنة مضت.

كنت في عقدي الأربعين حين أوكل لي بكنيسة ورعية في أحد الأحياء الفقيرة في مدينة "لافيرو.. المدينة خيالية" في ولاية تكساس وكانت هذه المدينة تشتهر بملاهيها وباراتها أكثر من كنائسها وكان الناس يرتادون هذه الملاهي والبارات ويعملون فيها أكثر من ارتدادهم إلى الكنيسة.

ولم أكن كما الآن.. كنت لا أزال شابا وسيما بجسد صحي وما زال شعري الأشقر خاليا من البياض الذي فيه.. كنت رجلا نشيطا في خدمة الكنيسة وسعدت بهذه التكلفة التي كلفت لي لأني دائمًا ما كنت أحاول أن أغير الحياة من حولي وأن أعيد الخراف الضالة إلى قطيع الرب، وكنت أفعل المستحيل حتى أجمع الناس وأعود بهم إلى حضن الكنيسة كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها.

حاولت كثيرا في بعض الأحيان أنجح وفي بعض الأحيان تتغلب الطبيعة الإنسانية عليَّ بقوة من الشيطان لكني كنت دائمًا أصلي من أجل الأرواح الضائعة والأرواح التي تغلبت عليها الشهوة بكل وجوهها.. لكل روح ابتعد عن الرب وبيته، لكل نفس ماتت وهي ما زالت على خطيئتها ولكل شخص لديه في قلبه نور صغير يشع من داخل العتمة.

كان يوم الأحد وبعد انتهاء القداس ومغادرة المصلين الذين يعدون على الأصابع.. تقربت إحدى النساء التي كانت تأتي باستمرار لسماع الموعظة والترتيل وكنت أعرفها؛ كان اسمها سارة فتاة ثلاثينية، أم لطفلين صغيرين.. وكانت سارة امرأة طيبة أرملة توفي زوجها بسبب مرض خبيث، وكانت أمها ترعى أطفالها بينما هي تعمل في مطعم قريب من منزلها.

وكانت لا تنقطع عن الكنيسة في كل أحد.. أجدها تمسك بمسبحتها وتصلي منذ الأشهر الستة التي قضيتها هناك في تلك المدينة..أما ذلك الأحد فقد أتت متأخرة بعد انتهاء القداس لكن لم تأتِ فارغة اليدين بل كانت قد جلبت معها صديقتها ولأول مرة أرى هذا الوجه يدخل كنيستي.

ابتسمت من بعيد لما رأيتها تدخل وتجلس في الصف الثالث من المكان المخصص للجلوس وبجانبها صديقتها تقدمت منهم بعد أن عرفت أنها أنهت صلاتها وقلت: "لقد تأخرتِ يا سارة اليوم، وليس من عاداتك كما أعرفك".

أجابت وهي مبتسمة: "لقد كان لدي عمل طارئ ولم أستطع الخروج مبكرا، لكني جلبت صديقتي كاترينا وأقنعتها بالقدوم بصعوبة".

ابتسمت بحنية وهي تنظر إلى صديقتها.. كانت كاترينا فتاة بعمر سارة لكن مختلفة جذريا.. كانت فتاة سمراء بشعر قصير يبدو أنها قد صبغته بلون أحمر مائل إلى برغندي بعينين سوداوين كبيرتين، وشفتين مكرزتين ورديتين.. كانت جميلة جدًّا وجمالها مريح للعين.. نظرت إليها وقلت: "أهلا وسهلا بك.. أبواب كنيستنا مفتوحة للجميع. كيف حالك؟".

أجابت كاترينا وقالت: "أنا بخير.. شكرا، لكن بصراحة، لست من الذين يترددون على بيوت الله؛ فأنا لا أؤمن بوجوده".

ابتسمت.. كان كلامها لا يعكس بما رأيته في عيونها.. كانت تتحدث وكان الله قد خيب ظنها في قدرته "حاشا لله" ولكن عينيها كانتا جائعتين لمعرفته أكثر.. كانت تريد التقرب منه لكنها مجروحة في قلبها.. ستقول كيف عرفت أيها الأب توماس، وساخبرك كيف.

كانت تتحدث وفي عينيها تتجمع كل دموع العالم دون أن يراها أحد.. كان تخرج من شفتيها الكلمات وهي ترتجف خوفا.. كانت تريد أن تعرف إلهًا غير الإله الذي تعرفه.

فقلت لها: "لا يوجد شخص بهذا العالم لا يعترف بالله، ولكن لكل منها إلهًا مختلفًا و بآخر الأمر يصب في إله واحد لا شريك له".

أجابتني وقالت: "لن تقنعني.. أتيت اليوم من أجل صديقتي لأنها ألحت عليَّ، ولكن لا يعني هذاأني مقتنعة".

أجبتها وقلت: "وما الذي لا تقتنعين به؟ أخبريني وأنا أجيبك لو كان هناك تساؤل في عقلك.

قالت: "لو كان الله رحومًا كما تقولون لما جعل الأطفال يعانون حين يأخذ روح أحد الوالدين وهم أطفال.. لمَ لا يؤجل الموت حتى يصبح الأطفال كبارًا يستطيعون أن يعتمدوا على أنفسهم؟ أن يعيشوا الحياة ويحسوا بالحب الأمان في كنف والديهم".

حينها تأكد أنها مجروحة أو تشعر بنفسها أن الله خيب ظنها، وتخلى عنها بسبب فقدانها أمها أو أبيها، فأجبتها وقلت: "لله أوقات تحت السماء وهو يعرفها جيدا، ثم إنه لا يدخلنا في تجربة إلا وكنا نستطيع الخروج منها، الله يعرف قدرة كل منا على التحمل فيجربه على قدرته، ولكنه دائمًا معنا يسندنا بصورة غير مباشرة؛ فمثلا لو أخذ منا شيئًا ما سيعوضنا بأمر أفضل، ولو تعذبنا قليلا سيجازي عذابنا بنعمة أفضل".

أجابت ضاحكة وكأني أمزح معها وقالت: "لم يعد هذا الكلام يؤثر في؛ فكله يغدو في مهب الريح.. أنتم الكهنة تقنعون أنفسكم بهذا الكلام، وتقنعون الناس السذج البسطاء لتجعلوا منهم رعية لكم وتابعين فإذا لاتوجد رعية لا توجد سلطة.. أليس كذلك؟".

قلت: "ما رأيك لو تأتين غدًا، وسنتحدث أكثر بالأمر.. الآن لدي موعد مع مريضة لأزورها".

قالت: "لمَ تريد مني أن آتي؟ لقد أخبرتك بما أعتقد ولن أغير اعتقاداتي بعد الآن".

قلت: "أنا لن أجبرك على تغير اعتقاداتك، بل سنتحدث أكثر ما رأيك؟".

شجعتها سارة على أن توافق ووافقت.. واتفقنا على موعد آخر للقاء في اليوم التالي.

*****

كان الأب توماس يصغي باتقان إلى كل كلمة يقولها له الأب افرايم حاضنا الإنجيل المقدس إلى صدره.. يستمع إلى القصة التي يرويها له الكاهن المريض الذي فضل البوح على الراحة في ساعاته الأخيرة وقال: "افهم لماذا أصررت على السيدة كاترينا بأن تلتقي معها مرة ثانية، لكن ما هو السر الذي خبأته؟ هل له علاقه بها؟".

أراد الأب افرايم أن يعدل من جلسته ويسند ظهره؛ فساعده الأب توماس، ثم أجابه بعدها: "آه يا بني، لقد كانت هي السبب والنتيجة والسر والبوح معا".

تطلع إليه توماس وكأنه يقول له "أكمل". كانه يقرأ كتابا وتبين أنه يشده بكل فصل أكثر من الذي قبله

فاستطرق الأب افرايم وقال: "وجاءت في الموعد المقرر بلا ثانية زائدة أو ناقصة، بشعرها المربوط إلى الخلف وفستانها الأصفر ذي الأكمام القصيرة كانت قد وضعت شالا خفيفا عليها يغطي الصدر شبه العاري من الأمام.. كان كل شيء فيها فتنة تجذب الانتباه.

جلست في المقعد قبل الأخير وكان هناك امرأة عجوز تصلي لما رأتها نهرتها بنظراتها فانتبهت لكاترينا وهي تستر نفسها أكثر وكأنها ليست نفس الفتاة التي التقيتها قبل هذه المرة تلك الفتاة كانت أكثر جرأة.. ما الذي حدث بعد لقاء واحد فقط؟ لا أدري.

ابتسمت لها بعد أن رأيت أن كل الكنيسة فارغه لا أدري لماذا تأكدت من فروغ الكنيسة أولا قبل أن أذهب إليها.. تقربت منها وجلست بجانبها.. نظرت إلي بعينيها الكحليتين وقالت: "اعذرني على ملابسي هذه غير المحتشمة أتيت من

مكان عملي إلى هنا فورا.. لم يكن لدي وقت لتغير ملابسي بالذهاب للمنزل.

أجبتها وقلت: "لا عليك، لكن ما الذي تعملينه؟".

"أنا اعمل نادلة في بار قريب من هنا".

"حسن العمل لا خطيئة فيه.. إن الإنسان يعمل كي يوفر قوته.. أبونا آدم كان يعمل وكل الأنبياء حتى يسوع المسيح عمل نجارًا، لكن المشكلة هي في أن نستخدم أجسادنا وهي مقدسه جدًّا من أجل شيء يسمى العمل.. أجسادنا هياكل للروح القدس.. لهذا نود دائمًا أن نبقيها طاهرة إلا بالحلال نريد أن يبقى جسدنا لله وحده".

قالت وكأنني جرحتها بالكلام وأحرجتها: "ولكن هذا هو اللبس الرائج في البار أنه بار بحق الله.. ما الذي تريد من العاملين أن يرتدوا مثلا؟".

قلت لها: "وهل تتعرى الرجال هناك وأيضا أم فقط النساء العاملات؟".

سكتت.. لم تجب ففهمت وفهمت هي أنني على صواب، ثم قالت لي: "أتيت هنا لأنك وددت أن تكلمني وأنا أتيت لكنك لم تخبرني.. لمَ طلبت مني القدوم اليوم؟".

قلت باسما: "نعم، طلبتك للتحدث، لكني سأسمع فقط.. أنت من ستتحدثين، وتخبريني بكل شيء.. هناك شيء فيك يجعلني أريد الاستماع".

ضحكت.. كانت ضحكتها أشبه بتراتيل ملائكية.. لم أسمع من قبلها ضحكة كهذه.. كان كل وجهها مشعًا ينبض بالحياة.. عيناها تتلألأ مثل سماء ليلية مليئة بالنجوم وقالت: "ما الذي تريد سماعه من بائسة مثلي".

قلت: "كل شيء لدي الوقت كله لك".

"هل تريد أن اعترف لك بخطاياي مثلا".

"لا.. من قال إني هنا لأسمع اعترافاتك".

"لكن هذا ما يبدو لي".

"اعتبريتي إذن مثل سارة التي تتحدثين لها كصديق فقط".

قالت لي بحدة: "ومن قال إني أخبر سارة كل شيء لا أحد يستطيع أن يتخيل ما مررت به".

أجبتها: "إذن سأحاول أن أتخيل إذا سمحت لي".

لا أدري لماذا أريد أن أسمعها للمرأة هالة غريبة تسحرني فيها.. أريد أن أتعمق فيها كثيرا.. أن أدخل إلى دواخل عقلها وقلبها.. أريد أن أفهم تعاستها.. ولمَ هي بعيدة عن الله هكذا؟ كل منا قريب من الله بطريقة ما، لكن هي بعيده جدًّا.

سكتت هنيهة ثم قالت: "لا أدري لماذا أنا جالسة هنا من الأصل.. ولا أدري لماذا وافقت على القدوم من الأساس، لكن هناك شيئًا فيك يجعلني أثق أن أتكلم حتى لو لم تسالني.. فيك شيء لم أعهده في أي كاهن من قبل قلبي يرتاح لرؤيتك وعقلي مطمئن بجانبك".

ربت على يدها المنكمشة في حضنها وأنا أؤكد لها ما قلته قبل قليل وابتسمت.

رأيت في عينيها الابتسامة قبل شفتيها كنت أقسم أني أسمع دقات قلبها الواصلة إلى أذني بصوت عالٍ يفوق حتى أي صوت خارجي من حولنا.

قالت وهي تزيح نظرها إلى الأسفل وبدأت شفتاها بالتحرك حين قالت:

"لا أدري من أين أبدأ؛ فكل حياتي عبارة عن ألم وحزن وأسى منذ طفلة بضفائر صغيرة على جانبي رأسي كنت سعيدة، أو على الأقل هذا ما كنت أشعر به وأنا طفلة ذو ثماني سنوات، حتى نهضت ذات يوم على صراخ بين أبي وأمي كانت المشاجرات كثيرة بينهما في تلك الآونة. لم أخرج من غرفتي، وضعت وسادتي على أذني كما أوصتني أمي أن أفعل حين أسمع صوت شجار أو صوتًا عاليًا حتى لا أخاف.. أرتعب.. وعدت الدقائق أو الساعات.. لا أدري حينها.. لم أشعر بالوقت، فقط شعرت أن الوقت يمر طويلا بطيئًا، وبعدها توقف كل شيء عن الصراخ، هدوء سكون، لا شيء على الإطلاق.. رميت الوسادة بعيدًا.. انتعلت خفيَ وفتحت باب الغرفة لأخرج منها ذاهبة إلى أمي.. لكني وصلت و...".

لم تستطع كاترينا تكملة الحديث؛ ارتعش جسدها وبدأت بالبكاء. كانت عيناها كشلال لا يتوقف وتلك اللآلئ الثمينة تسقط الواحدة تلو الأخرى.

حاولت أن أهدئ من روعها وحزنها.. ذهلت وجلبت لها كأسًا من الماء وعدت.

قاطعه الأب توماس وسأل بفضول: "هل ما أفكر به صحيح؟ هل قتلت الأم على يد الأب؟".

أومأ الكاهن المريض برأسه وقال: "نعم.. لقد تفاجأت.. طفلة ذو عمر ثماني سنوات ببركة دم تحيط بجثة أمها المسكينة.. بعد أن طعنها الأب عده مرات وفر هاربًا، وبقيت كاترينا مثل المدهوشة لا تعرف ماذا تفعل، وانهارت الطفلة وخرجت تصرخ وتبكي حتى تجمع الجيران حولها.. اكتشفوا ما اكتشفوه، بعدها دخلت في صدمة نفسية لسنة كاملة وجروا والدها مقتولا أيضا بعدها.. ويرجح

أنه قتل على يد عصابة تتاجر بالممنوعات".

قال الأب توماس: "ثم ماذا حدث؟".

أجابه الكاهن الشيخ وقال: "وأنا سألت نفس السؤال".

ارتشفت من تلك الكأس وهدأت قليلا.. تنفست بعمق وقالت: "وبدأت رحلتي بالمعاناة، وتنقلي من مكان إلى آخر، كل عائلة تهتم بي لبعض الوقت حتى أصبحت فتاة ذات الثانية عشرة حين أوكلت إلي امرأة أربعينية مع زوجها وكان لديها فتاة أخرى.. كانت هذه هي العائلة الحاضنة.. في بداية الأمر كان كل شيء يسير بشكل روتيني.. كنت انطوائية جدًّا.. قليلة الكلام وكان زوج السيدة جورجيت رجلًا صعبًا منضبطًا جدًّا، وكاننا كنا نعيش في ثكنة عسكرية.. لأنه كان جنديًّا متقاعدًا وكان يطبق القوانين العسكرية في المنزل.. كنت أخافه جدًّا وأرتعب حين أسمع صوته لكن السيدة جورجيت كانت امرأة طيبه وما بيدها حيلة".

نظرت إليَّ وقالت: "لمَّا دائما النساء ضعيفات أمام الرجال.. لمَ لا يقفن بوجه الظلم؟".

أجبت وقلت: "إن النساء من أقوى المخلوقات التي خلقهن الرب، لكن لديهن قلوب ضعيفة طرية طيبة، لا يظهرن قوتهن إلا إذا لزم الأمر.. والكثير من الأمهات يتحملن كل شيء من أجل أطفالهن؛ هذه غريزة الأمومة".

عقدت حاجبيها امتعاضا وقالت: "لكن الأفضل أن يعيش الطفل بحالة نفسية وصحية جيدة بغياب أحد الوالدين أفضل من أن يعيش تعقيدات نفسية بوجود مشاكل مع كلا الوالدين".

كلامها أقنعني، لكن قوانين الكنيسة تحرم الطلاق رغم كثرته.. نحن خلقنا ذكرا وأنثى واحدا للآخر مدى العمر، لكن لكل قاعدة شواذ.. سألتها وقلت: "ثم ماذا حصل؟".

قالت: "هربت".

اندهشت بإجابتها: "هربت.. كيف؟ ولماذا؟".

"نعم هربت قبل عيد ميلادي الثامن عشر بعد أن كاد زوج جورجيت يعتدي علي وهو ثمل".

هنا أصابتني صاعقة، إلى متى ستظل هذه الطفلة داخلها تُعرَّض لخيبات أمل لا شك أنها ستعتقد أن الله تخلى عنها لأنها عانت كثيرًا.

أجبتها: "وأين هربت؟".

قالت: "خرجت من المنزل، وليس معي دولار واحد.. ركضت حتى ابتعدت ثم توقفت لأخذ أنفاسي، وبعدها مشيت كثيرًا حتى وجدتني فتاة وصديقها كانوا يسافرون بسيارتهم.. أوقفتهم وشرحت حالتي لهم.. أخبرتهم أني هربت من عصابة ما وأريد الابتعاد.. أخذوني معهم.. حتى وصلت هنا إلى هذه المدينة.. ومن ذلك الوقت وأنا هنا".

صمت.. لم أجبها.. ما الذي سأقوله لأخفف عنها؟ لا يوجد كلام، ولا كلمات.. ليس بيدي سوى أن أستمع لها.. أكملت قائلة: "صليت كثيرًا.. أتعلم؟ صليت حتى يساعدني الله، لكنه لم يسمعني، عشت مشردة لأشهر أنام على الطرقات وآكل ما يقدمون لي الناس من عطايا.. طرقت أبواب الكنائس لتستقبلني.. لكن كانوا يبقونني لساعات ثم يطلبون مني المغادرة.. إذا الكنيسة لم

تساعدني فمن سيساعدني؟".

أغمضت عيني وتنهدت، كيف يحدث هذا؟ سكت الكاهن العجوز.. أحس بالتعب من الحديث.. نهض الأب توماس لمساعدته هذه المرة بالجلوس وأعطاه دواءه الذي كان بجب أن يأخده فقال له الأب توماس: "لهذا افتتحت ملجأ المشردين هذا قبل سنوات، وفعلت المستحيل حتى يستوعب كل من لا سقف لهه، وكنت تتوسل وتترجى الغني والذي على اقتدار حتى يتبرعوا من أجل هذا المشروع.الآن فهمت إصرارك بالاعتناء بالأطفال خاصة بنفسك. وحبك لهم كان سببه ما مرت به كاترينا.. ما الذي يوجد؟ بعد بهذه الحكاية كيف هناك خطيئة تنسب لك؟ لقد كانت لك طريق وليس عثرة، صحيح أنا حزنت من أجلها لكن هناك أمورًا تحدث في الحياة غصب عنا وما من شيء بيدنا لنغيرها.. لكن الله أعطانا العقل لنفكر.. كانت تستطيع أن تذهب للشرطة وتبلغ عنه بدل هروبها ومرورها بكل ما حدث.

هز الكاهن الضعيف رأسه منافيًا لما قاله له توماس لكنه قال: "وماذا كانت ستفعل طفلة مثلها.. كل ما فكرت به بسبب الخوف هو الهرب، وبعدها وقعت بيدين من يستغلون ضعف الناس لأجل مصالحهم.. ما الذي ستفعله فتاة صغيرة بلا مرشد أو شخص يساعدها على العيش باحترام.. طفلة هي رغم سنينها الثماني عشرة. كثير منا يكون في أحضان أمهاتهم حتى لهذا العمر وهي تتجول في الشوارع جائعة أو متجمدة من البرد أو حتى مريضة لا أحد يهتم.. اعتقدت أن من طلبها للعمل أنقذها، لكن بالحقيقة أغرقها في شيء أكبر لوث براءتها وسلب عفتها.

"حسنًا". أجاب توماس وقال: "وماذا حدث بعدها؟".

أخبرتني حينها بعد أن سألتها أنت.. قلت لها: "ثم كيف أكملت حياتك وكيف وصلت لهذه الحالة الآن؟".

أجابتني وكأنها لا تبالي بما سألت وبما حدث وقالت: "كالقصص الكثيرة مثلي.. وجدني أحدهم وطرح عليَّ العمل عنده.. كان يقول أن شكلي مثل ممثلات هوليود.. أنفع للعمل معه أفضل من العيش في الشوارع.. ووافقت لم يكن بيدي شيء آخر.. عملت في ملهى ليلي راقصة، ثم بعد أن جذبت الشباب والرجال ترقيت لمرافقة.. كنت أربح الكثير من المال حتى جاء اليوم المشؤوم الذي وقعت فيه بحب أحدهم.. من أجل سام كنت مستعدة أن أضحي بأي شيء فقط من أجل أن أصبح حبيبته وأن يخرجني من هذا العالم من أجله.. كنت مستعدة أن أترك العمل وأبقى خادمة تحت قدميه من أجله.. جربت أن أتغير.. فعلت كل ما تفعله النساء حتى يمتلكن رجالهن لكن ما فعله بي كان أقسى من كل ما مررت به.

أحببته جدًّا.. كنت ثملة به من دون خمر.. كنت دائخة كأنه مرض أتعب روحي.. تلبست به مثلما يتلبس الشيطان بضحيته فكان ما يقوله قانون وما يطلبه أمر انجررت وراءه.. يوما بعد يوم ارتميت في أحضانه كأنني عذراء أولد من جديد.. كأنه أول من لمس جسدي ترتجف كل حواسي حين يهمس لي أو يتقرب مني.. كانت قبلاته دواء وكلماته مرهما لروحي.. أما لمساته فكانت مثل ماء بارد يطفئ نيراني.

أعلنت حبي له ذات ليلة أنا أتوسد صدره عاريين من كل شيء إلا أحاسيسنا؛ فأبعدني عنه بجفاء.. ارتجف قلبي له.. أحسست أنني بعدما قلت "أحبك".. سيكون الفراق جوابه.

سألته لما نهضت وأين ذاهب، فقال لي: "لدي عمل كنت قد نسيت أمره".

ورحل دون أن ينظر للخلف كما كان يفعل قبل تلك الكلمة ذات الأربعة أحرف التي دمرت كل شيء.

ولم أره في اليوم التالي ولا الذي بعد.. سألت عنه كل من كان من الممكن أن يعرفه؛ فقال بعضهم إنه سافر من أجل عمل، وبعضهم بقول إنه مشغول، لكنني كنت أتمزق من داخلي خشية أنه يهرب مني فتوجعت وأيقنت أنني انتهيت.. وبسبب عقلي المشغول به باستمرار.. تشاجرت مع أحد الزبائن ووصل بي الأمر بالطرد.. وطُرِدت بعد سنوات من العمل في ذاك الملهى الذي رأيت فيه أشكالًا وأنواعًا من الناس لا حصر لهم.. تركت العمل وبحثت عنه ولم أجده ثم كان يجب أن اجد عملا آخر كي ادفع فواتيري وأعيش كحالي من الناس فوجدت هذا البار الذي أعمل به الآن منذ ذلك الوقت".

سألتها باهتمام لأعرف تكملة القصة وقلت: "وهل رأيت سام من جديد أو مرة أخرى؟".

"نعم رأيته ويا ليتني ما كنت رأيته.. كنت سأعيش على أجمل ذكريات حياتي، لكنني كما أخبرتك كان هو صدمتي الكبرى.

رأيته وكان في مطعمٍ، بجانبه ولدٌ صغيرٌ. امرأة في قمة الجمال والأنوثة والأناقة.. وقفت من بعيد أراقبهم خلف إحدى النافذات الكبيرة للمطعم المطلة

على الشارع.. كنت أراه كم يبدو سعيدًا وكم كنت أتخيل نفسي أجلس بمكان تلك المرأة التي معه، كانت زوجته عرفت منه هذا لما التفت ورآني.. وجدني واقفة أبحلق فيهم، والدمعة في عيني.. خرج مسرعًا بعد أن وضع قبلة على خد زوجته كأنه يستأذن الخروج.

جاءني.. أمسكني من ذراعي وجرني خلفه اوقفني عند زاوية بعيدة عن الأنظار وقال: "ما الذي تفعلينه هنا؟ كيف وجدتني؟ تكلمي.. هل تراقبينني؟".

أسئلة كثيرة يسألها بلهجة متوترة.. ينظر يمينًا ويسارًا لا يريد أن يرانا أحد.. أجبته وقلت: "لقد اختفيت من دون ولا كلمة.. بحثت عنك كثيرا حتى يأست.. ألم تفكر بي قط؟ حتى وجدتك هنا تجلس براحة مستمتعا بصحبة امرأة أخرى".

أمسك بذراعي وجرني إليه ومن عيبه تتطاير شرار نار غضبه.. قال: "تلك زوجتي مع ابني".

لا أدري لمَ لم أندهش.. وكأني قد توقعت هذا.. كان قلبي قد تصلب.. لو كانت أي واحدة أخرى مكاني لدخلت بحالة من الهستيريا، لكنني بسبب ما وقع بي يبدو أني لم أتاثر ولم تكن هذه صدمتي، لكن كانت صدمتني الحقيقية حين سألته: "لمَ لم تخبرني وخاصة بعد أن أخبرتك أني أحبك؟".

أجابني قائلا: "هههههه.. هل تريدين مني أن أحب عاهرة.. لم تكوني سوى جسد جميل أعجبني فاختبرته.. لم تكوني بالنسبة إلي سوى تجربة أفرغت فيها بعض من طاقتي مثل لعبة جديدة.. تكون ممتعة لعدة أيَّام ثم يمل منها، وأنا

مللت منك، وتركتك.. لا تفكري أنك كنت ضحية هذا كان جزءًا من عملك حتى قبل أن تعرفيني.. أليس كذلك؟".

صفعته فقط.. بصقت في وجهه وابتعدت بكل قوتي ولم أنظر إلى الخلف. بكيت كثيرًا تلك الليلة.. كثيرًا جدًّا. والآن أسألك.. أين الله من كل هذا؟".

لأول مرة لم أستطع أن أجيب.. لأول مرة أيها الأب توماس أرى أن السكوت هو أفضل من الكلام. لا أدري كيف سأدافع عن الله أمام معاناة هذه المرأة.

أجاب توماس وقال: "هناك من عاش أكثر ظلما ومأساة.. هناك الكثير مثلها أسوأ منها".

"صحيح، لكننا لا نعرف بوجودهم إلا إذا قابلنا نموذجا، وكانت كاترينا نموذجًا فتح عيني على الكثير من الأمور".

حسنًا يا أبتي ما الذي فعلته بعد كل الذي سمعته منها؟ وكيف آلت الأمور بعدها؟".

أجاب قائلا: بعدها ارتمت على كتفي، وبكت قليلا.. شعرت أن قلبي قفز من بين أضلعي وبدا ينبض بسرعة أكثر.. ابتعد عني، ورفعت رأسها كم تمنيت وقتها أن تبقى هكذا كل عمري، ثم صليت من أجلها وأوصيتها أن تأتي الأحد القادم إلى الكنيسة لتسمع العظة ووافقت مسرورة، وقبل أن تخرج من الكنيسة قالت لي: "لم أشعر بنفسي خفيفة قط.. إلى هذا الحد.. شكرا لأنك استمعت". أجبت: "بل شكرًا لأنك فتحت قلبك لي وأنا آسف جدًّا لكل ما مررت به، لكن لكل حدث وقعت به كان هناك أمر خلفه". قالت متسائلة: "كيف؟".

"حمتك أمك بحياتها حتى وإن كانت طريقتها خاطئة ساعدتك جورجيت بالعيش تحت سقف بيتها بالرغم من زوجها المجرم.. اطلعت الحياة على كذب سام حتى لا تستمري بالعيش في الخداع، وبالرغم من هذا كله أخرج لكِ سارة لتكون صديقتك ولتهتم بما أنت عليه.. هناك دائما شيء جيد في الشر الذي حولنا، ويجب أن نكون شاكرين له.. صدقيني الله لا يستغني عن أولاده.. فقط يريد أن يعرف إلى أي مدى يصل الإنسان في إيمانه به أو في الابتعاد عنه، وفي كلتا الحالتين يكون دائما معه".

ابتسمت وأجابت قائلة: "أراك الأحد المقبل يا أبت". وخرجت ولكنها خطفت مني شيئًا معها، وطوال ذلك الأسبوع كنت أفكر فيها وأعد الأيام حتى يأتي الأحد وأراها.. لم أفكر قط أن ما أفعله خاطئ أو ما أشعر به تجاهها، ويجعلني أندم طوال حياتي.

اتكأ توماس على الكرسي وهذه المرة لم يعلق بشيء.. فهمت بالضبط ماذا من الممكن أنه قد حدث بين كاهن وامرأة خاطئة كهذه.

كانت تلك النظرة التي على وجهه كفيلة بأن يقول له الأب افرايم هذا: "هل تفكر أني وقعت بحبها.. أليس كذلك؟ لأخبرك إذن.. لقد كانت العين التي رأيت العالم به من خلالها.. لقد كانت الحب الذي تملك في قلبي وارآني العالم الحقيقي.. لقد كانت امرأة خاطئة من الخارج، لكن طاهرة من الداخل مثل تلك الخاطئة التي بللت قدمي يسوع بدموع ندمها، وغفر لها خطاياها لأنها ندمت من كل قلبها، وليس ندما شفويا.

أجابه توماس وقال: "نحن البشر ضعفاء وإبليس يجربنا دائما.. ليس خطأك أن جربك إبليس بل الخطأ لو بقينا على نفس الخطاء ونحن نعرف أنه خطأ، لكن السوال هو هل أتت إلى القداس يوم الأحد؟".

"نعم، لقد أتت وكانت تمتلئ بالنور، وكأن الكنيسة كانت قد أصبحت أكثر ضياءً بسببها. ترتدي ملابس محتشمة، وعلى رأسها شال يغطي شعرها، وجلست في نفس المكان حتى انتهاء القداس، ثم تكررت الزيارات وحضورها القداس وأصبحت أبحث أن وجهها بين المتعبدين، وبدأت تشترك بالأعمال التطوعية واهتمت بالكنيسة ونظافتها.. اهتمت بالأطفال في مدارس الأحد.. كانت في بعض الأحيان تحضر الطعام وتجلبه لكل العاملين بالكنيسة كما سمحت لها الفرصة بالقدوم.. وزاد قربنا، حتى إنها تركت عملها في ذاك الملهى واشتغلت في مطعم محترم بأجر بسيط يكفيها يومها.. تغير حالها وأصبحت أكثر إشراقا عادت ابتسامتها إلى وجهها.. مرت سنة كاملة، وفي هذه السنة تغير الكثير.. جئت ذات يوم إلى مطبخ الكنيسة أردت أن أعمل لنفسي كوبًا من القهوة كان لدي بحث مهم أقوم بمراجعته؛ فلما دخلت وجدتها هناك.. تلقتني بابتسامة وقالت: "هل تحتاج لشيء أيها الأب افرايم؟". قلت: "هل ما زلت هنا؟ اعتقدت أنك ذهبت بعد أن انتهى القداس". قالت: "ذهبت.. وعدت مسرعة نسيت أن آخذ حلة المطبخ.. إنني جلبت بها طعاما لبواب الكنيسة البارحة وسأعود للعمل هل تريد شيئًا قبل أن أذهب". أجبت: "كلا، كنت سأعد القهوة.. هل أعدها لك؟". أجبت وانا أمد يدي على آلة القهوة فتمد يدها هي أيضا.. تتلامس كفانا وجسدانا قريبان من بعضه جدًّا.. أنفاسها الحارقة المعطرة كادت تحرقني بنار لا

تنطفئ.. لا أدري كيف تملكت نفسي ولم أقبلها.. ابتعدنا نحن الاثنين عن بعضنا بسرعة كأننا صعقنا بسلك كهربائي.. جرت شحنة في جسدينا.. أطرقت رأسها وخرجت بسرعة.. أما أنا فاكتشفت لتوي أني كنت على وشك أن أخون الكنيسة.. وألوث كهنوتي.

تركت كل شيء في المطبخ وعدت أذرف دموع الندم في غرفتي، وبقيت ذلك النهار، والليل كله أصلي بندم ليسامحني الله لأني كسرت شريعته ونذوري الكهنوتية بعدم الانجراف خلف أي شيء دنيوي.. وأنا كنت قد عشقت امرأة ولم أكن أدري.

نهض الأب افرايم ليذهب إلى الحمام بمساعدة توماس حتى انتهى مما كان يفعله وعاد إلى غرفته.. طلب منه توماس أن يرتاح ويكمل فيما بعد لكنه أبى ذلك وطلب منه أن يكمل اعترافه عاد واستلقى على السرير وأكمل قائلا: "لقد كررت فعل الندامة أكثر من مئة مرة طوال الليل وكنت أقول "يا ربّي وإلهي، أنا نادم من كل قلبي، على جميع خطاياي، لأني بالخطيئة خسرت نفسي والخيرات الأبدية، واستحققت العذابات الجهنمية. وبالأكثَر أنا نادم، لأنّي أغظتك وأهنتك، أنت يا ربّي وإلهي المستحق كل كرامة ومحبة. ولِهذا السَبَب أبغض الخطيئة فوق كل شرّ. وأُريد بنعمتك أن أموت، قبل أن أُغيظك فيما بعد. وأقصد أن أهرب من كل سبب خطيئة. وأن أفي، بقَدر استطاعتي، عن الخطايا التي فعلتها. آمين". نظرت إلى صورة السيد المسيح المصلوب وكانه كان يقول لي بعد أن سفكت دمي لأجل خطاياكم تعودون وتخطئون وفي كل مرة أسامحكم لأني حبي عزيم ومغفرتي بلا حدود.. وقلت صلاة كنت حفظتها منذ كنت صغيرًا

أتردد على الكنيسة كشماس بدا حياته الكهنوتية توا.

يا إلهي، إنّي أُحبّك فوق كلّ شيء، وأنا أكره، وأمقتُ من صميم روحي، الخطايا التي أغظتُك بها، لأنها كانت غير مرضيّة في نظرك، لأنّك أنت الصلاح الفائق، والمُستحق لكلّ محبّة. وأُقر أنّه يجب عليَّ أن أُحبّك محبّة تفوق محبّتي لأي إنسان آخر، وإنّه يجب عليّ أن أُثبِّتَ محبتي هذه لك. وعندما يُفكّر عقلي بكَ، فإنني أرى عظمتك اللا محدودة، الأعظم من كلّ شيء في هذا العالم، مهما كان غالياً أو جميلاً، ولذلك، فإنّني مُصمم بحزم وبطريقةٍ لا رجعة فيها، أن لا أُغيظك أبدًا. وألاّ أعمل شيئًا يغضب صلاحك الكامل، أو يعرّضني لخطر السقوط من نعمتك المقدسة، الّتي أنا مُصمم كل التصميم على أن أواظب عليها حتى النفس الأخير في حياتي... آمين.

صليت كثيرا حتى فقدت الوعي ولم أدرِ كم كانت الساعة وأنا لم أخرج من غرفتي ذاك اليوم حتى وجدني أحد الشمامسة وانا ملقى على الأرض شاحب اللون، وتم نقلي إلى المشفى.

بقيت هناك يومين ثم خرجت بعدما أصررت كثيرا أن لا يبقونني.. في تلك المشفى أحسست أني أختنق مثل سمكة تلتقط أنفاسها الأخيرة وهي خارج الماء. تم إخراجي فعلا ووجدت كل من قد لمستهم بطريقة أو بأخرى معظم أفراد رعيتي في الكنيسة.. تتوسطهن كاترينا بتلك الابتسامة الملائكية على وجهها سلموا عليَّ كلهم وأنا ما كنت أسترجي أن أنظر في عيني أي أحد منهم ظنا مني أنهم سيرون الخطيئة التي اقترفتها من خلال عيني.. كنت فقط أريد العودة إلى مخدعي لأكمل ندمي غير المحدود الذي لا يزال محفورًا في داخلي إلى حد الآن..

وحان الوقت كي أزيحه عن كاهلي قبل موتي لأن الله أعطاني الفرصة كي أحقق هذا الاعتراف في النهاية...".

قاطعه توماس وقال: "وما فعلت كاترينا بعدها؟ هل حاولت التقرب منك أم ابتعدت وماذا فعلت أنت يبدو من وجودك في الدير كل هذه السنوات أنك حبست نفسك فيه.. أليس كذلك؟".

ابتسم الأب افرايم لأن توماس فهم الحكاية كما هي.. قال مجيبا: "بعد أن خرجت من المشفى، أقمت أول قداس وكان الحضور كبيرًا، كما أنهم وزعوا الحلوى بعد الصلاة بمناسبة عودتي وكل هذا كان فكرة من أفكار كاترينا التي بدأت تتغلغل يداها في كل مكان، وأصبحت علاقتها مع الكنيسة والرعية جيدة جدًّا.. انتهى كل شيء وبينما هي تستجدي مني النظرات أنا كنت أهرب منها.. أو أنني كنت أهرب من نفسي وبنفسي حتى لا أقوم بفعل أخطاء أكبر.. الشيطان يا ولدي يعرف بالضبط ما نقطة ضعفك ويحاربك فيها، وعلى ما يبدو.. كانت تلك المرأة نقطة ضعفي.. لقد غفرت لها خطاياها بحلة من الروح القدس المعطى إلينا من الله أن نغفر للناس زلاتهم وخطاياهم على الأرض شرط أن لا يعودوا لها.. فيغفر الله في السماء.. فماذا نكون نحن إذا لم نغفر.. لقد غفر المسيح للخطاة وحتى لمن صلبوه فيكفي أننا نتشبه بالمسيح في حياتنا.. كنت واثقة منها أنها تطهرت من آثامها، لكني لم أكن واثقًا من نفسي. أتتني بعد أن رحل الجميع.. أمسكت بيدي لتقبلها مثل الأطفال لكن سحبتها بسرعة من بيت يديها.. قالت مبتسمة بحنان: "كنت خائفه جدًّا عليك يا أبت.. ما الذي حدث لك؟ لم أرك منذ وقت طويل". أطرقت رأسي إلى الأسفل وقلت: "كان لدي عمل.. وأشكرك

للسؤال.. يجب أن أذهب.. اسمحي لي".

قالت وهي تمسك بذراعي حتى لا أبتعد: "أريد أن أعترف.. هل تسمح؟". قالت بتوسل.

"الآن؟". أجبت وأنا لا أريد أن يطول لقاؤنا.

"نعم، أرجوك.. يجب أن أعترف.. أحتاج للاعتراف الآن".

"لكنني حللتك من كل خطاياك منذ مدة..هل أخطأت مجددا".

قالت: "أنا سأعترف لك، وأنت لك السلطان أن تعرف هل ما فعلته خطأ أم لا".

تبعتني إلى زاوية الاعتراف جلست أنا وجلست هي يفصلنا جدار من الخشب مزخرف بلوحة ليسوع وهو يركع على الصخرة في جبل الزيتون.. يصلي للأب قبل ما يمسك به الرومان بمساعدة يهوذا وكبار اليهود.. أسمعتني صلاة الاعتراف ثم رسمت علامه الصليب وهي أيضا.. صلينا مع بعض الصلاة الربانية قلت لها بعد أن انتهينا: "تفضلي يا سيدة اعترفي لما ترين قوله والله سيغفر لك أخطاءك بتعهد أن لا تعودي إليها مجددا". قالت: "لقد أحببت.. أحببت رجلا لا أستطيع الوصول إليه ولا يستطيع الوصول إليَّ.. أحببت رجلا وأنا واثقة ومصدقة أنه أفضل شيء حدث لي.. أحبني وتقبلني كما أنا بكل عيوبي قبل محاسني.. أليس هو هذا الحب؟ أن تحب السيئات قبل الحسنات أن تعشق الجوهر الذي في الداخل أكثر من القشره الخارجية، لكنه لا يستطيع أن يمر يده لي وانا أعذره لأنه لو تقدم إلي خطوة واحدة سيخطئ في حق نفسه وأنا لا أريد أن يخطئ ولا أستطيع أن أمد له غير روحي فقط، ولأني أحبه سأترك قلبي يحبه من بعيد

فقط، والآن أيها الكاهن هل حبي له خطيئة أم حبه لي خطيئة؟".

كنت مغمض العينين طوال الوقت وهي تتحدث حتى لامست كلماتها قلبي ولم أستطع أن أناقشها بأي مما قالت، ولكني أجبتها وقلت: "لم يكن الحب خطيئة؛ فالله أحبنا أولا لكن لو كان من تحبين أكثر من الله، حينها يكون الحب خاطئًا لأن أول وصايا الله هي أحبب الرب الهك من كل قلبك".

قالت: "إذن لتحلني يا أبتي لاني سمعت الجواب الذي أبحث عنه".

لقد فهمت جيدا أنني لن أتخلى عن ربي من أجلها، لكن حبها ملء مكان صغير لم يسكنه أحد من قبل.. حللتها واضعا يدي على رأسها، ولم أرها منذ ذلك اليوم لأني طلبت الانتقال للدير وسافرت بعد أسبوع دون أن أودع أحد، لكن بعد ثلاث سنين رأيت أحد أولاد الرعية، كان يزور الدير هنا.. وتحدث معي عن الكنيسة من بعد أن سافرت كما ذكرها في كلامها كانت قد فتحت بيتها للأطفال المشردين ولما زاد صيتها أعانتها الحكومة، ولقت مكانًا أفضل وأكبر وأصبحت أمًّا للعديد من الأطفال.. كنت فخورا جدًّا بها.. حمدت الله من قلبي أنه أظهر لها نفسه في هولاء الأطفال.. واستقر في قلبها الحب".

سكت الأب افرايم وعلى وجهه ابتسامة هادئة.. تذكر للتو تلك الإنسانة التي علمته الحب، رافعا عينيه إلى السماوات، ثم قال وكأنه يحدث الله: "إنني ملكك إلى الأبد.. قلبي لك، وحبي لك، كلي لك، ولكن لتكن الذكريات لي".

كان الأب توماس يشعر بشيء غريب كأنه شاهد للتو قصة كفاح رجل بتول.. لم يمس جسده أي تشوه بفعل الرغبة ولكن امتلأ قلبه بحب كبير.. تعلم للتو أن الحب يمكن أن يفعل المعجزات حقا..

قال له: "هل أعطيك الحلة الآن".

اوما الأب افرايم برأسه موافقا؛ فنهض الكاهن الصغير وصلى وناوله القربان، وانتهى من صلاته.. اتكأ الأب الشيخ مستلقيا على سريره ينتظر ساعته ولكن أوصى تلميذه وقال: لا تغلق باب الكنيسة، أو قلبك لأي إنسان كأن

لم تمر ساعات حتى أسلم الروح لخالقها، وذهبت روحه إلى السماء إلى من ملكه طوال حياته.

*****